المسلمين مساجد في يكن لم إذ ذلك يستقيم ولا . المساجد بالبيوت أريد : قيل ثم A E يومئذ مصابيح وإنما أحدثت المصابيح في المساجد الإسلامية في خلافة عمر بن الخطاب فقال له علي : نور ا مضجعك يابن الخطاب كما نورت مسجدنا . وروي أنما أسلم تميم سنة تسع أي بعد نزول هذه الآية . وقيل البيوت مساجد بيت المقدس وكانت يومئذ بيعا للنصارى . ويجوز عندي على هذا الوجه أن يكون المراد بالبيوت صوامع الرهبان وأديرتهم وكانت معروفة في بلاد العرب في طريق الشام يمرون عليها وينزلون عندها في ضيافة رهبانها . وقد ذكر صاحب القاموس عددا من الأديرة . ويرجح هذا قوله (أن ترفع) فإن الصوامع كانت مرفوعة والأديرة كانت تبنى على رؤوس الجبال . أنشد الفراء : .

لو أبصرت رهبان دير بالجبل ... لانحدر الرهبان يسعى ويصل والمراد بإذن ا برفعها أنه ألهم متخذيها أن يجعلوها عالية وكانوا صالحين يقرأون الإنجيل فهو كقوله تعالى (لهدمت صوامع وبيع) إلى قوله (يذكر فيها اسم ا كثيرا) . وعبر بالإذن دون الأمر لأن ا لم يأمرهم باتخاذ الأديرة في أصل النصرانية ولكنهم أحدثوها للعون على الانقطاع للعبادة باجتهاد منهم فلم ينههم ا عن ذلك إذ لا يوجد في أصل الدين ما يقتضي النهي عنها فكانت في قسم المباح فلما انضم إلى إباحة اتخاذها نية العون على العبادة صارت مرضية تعالى . وهذا كقوله تعالى (ورهبانية ابتدعوها ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان ا) . وقد كان اجتهاد أحبار الدين في النصرانية وإلهامهم دلائل تشريع لهم كما تقتضيه نصوص من الإنجيل . والمقصد من ذكر هذا على هذه الوجوه زيادة إيضاح المشبه به كقول النبي صلى ا عليه وسلم في صفة جهنم : " فإذا لهم كلاليب مثل حسك السعدان هل رأيتم حسك السعدان ؟ " . وفيه مع ذلك تحسين المشبه به ليسري ذلك إلى تحسين المشبه كما في قول كعب بن زهير : .

شجت بذي شبم من ماء محنية ... صاف بأبطح أضحى وهو مشمول .

تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه ... من صوب سارية بيض يعاليل لأن ما ذكر من وصف البيوت وما يجري فيها مما يكسبها حسنا في نفوس المؤمنين .

وتخصيص التسبيح بالرجال لأن الرهبان كانوا رجالا .

وأريد بالرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر ا : الرهبان الذين انقطعوا للعبادة وتركوا الشغل بأمور الدنيا فيكون معنى (لا تلهيهم تجارة ولا بيع) : أنهم لا تجارة لهم ولا بيع من شأنهما أن يلهياهم عن ذكر ا فهو من باب : على لاحب لا يهتدى بمناره

.

والثناء عليهم يومئذ لأنهم كانوا على إيمان صحيح إذ لم تبلغهم يومئذ دعوى الإسلام ولم تبلغهم إلا بفتوح مشارف الشام بعد غزوة تبوك وأما كتاب رسول ا صلى ا عليه وسلم إلى هرقل فإنه لم يذع في العامة . وكان الرهبان يتركون الكوى مفتوحة ليظهر ضوء صوامعهم وقد كان العرب يعرفون صوامع الرهبان وأضواءها في الليل . قال امرؤ القيس : .

تضيء الظلام بالعشي كأنها ... منارة ممسى راهب متبتل وقال أيضا : .

يضيء سناه أو مصابيح راهب ... أمال السليط بالذبال المقتل والسليط : الزيت أي صب الزيت على الذبال . فهو في تلك الحالة أكثر إضاءة . وكانوا يهتدون بها في أسفارهم ليلا . وقال امرؤ القيس : .

سموت إليها والنجوم كأنها ... مصابيح رهبان تشب لقفال القفال : جمع قافل وهم الراجعون من أسفارهم .

وقيل : أريد بالرفع الرفع المعنوي وهو التعظيم والتنزيه عن النقائض فالإذن حينئذ بمعنى الأمر .

وبعد فهذا يبعد عن أغراض القرآن وخاصة المدني منه لأن الثناء على هؤلاء الرجال ثناء جم ومعقب بقوله (ليجزيهم ا أحسن ما عملوا)